الصبر سفينة النجاة

أحمد الجوهري عبد الجواد

شبكة الألوكة
www.alukah.net

اصبر فخلف الصبر أشياء جميلة تنتظر

الصــبر. سفينة النجــاة

أبو حفص

أحمد الجوهري عبد الجواد

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوّى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

صلى عليه الله ما جنَّ الدُّجى *** وما جَرَتْ في فَلَكٍ شمسُ الضحى

أما بعد، لو أردنا أن نصف العصر الذي نعيشه بكلمة واحدة، لقلنا هو: عصر الصبر، فكلّ إنسان يعيش فيه يحتاج إلى الصبر، الكبير والصغير، الرجل والمرأة، الغني والفقير، العازب والمتزوج، الموظف والمدير، الداعية والعالم، الحاكم والمحكوم ... إلخ الجميع يحتاج إلى الصبر، من كان وأين كان، في ميادين العلم والعبادة أو في ميادين الجهاد والدعوة، أو في ميادين العطاء والتضحية، أو في ميادين الحياة والكفاح.

الجميع يحتاجون إلى الصبر، في كل الميادين، ذلك الخلق المهمّ في الحياة عامة، والأهمّ في حياتنا هذه خاصة، ذلك أنّ كثيرًا من أحداث وحوادث هذا العصر تقعد بهمّة الإنسان عن السير إلى الأمام؛ غلاء أسعار، وكثرة أمراض، وشيوع الموت الذي يذهب بالأحباب، وانتشار الحروب وتوالي الأزمات .. إلخ، وجميعها تدفع الإنسان إلى الجزع والسخط والتشكي، ومن ثم تضيق النّفس، وتقلق الروح، ويشيع اليأس، وتسودّ الحياة في عيون أصحابها.

إنّ الصبر سلاح المؤمن في هذه الأحوال كلّها، فحين يبتلى الإنسان في بدنه، أو ماله، أو أهله، أو مجتمعه، يحتاج لا شك إلى صبر ومعاناة.

فالحمد لله الذي جعلنا مؤمنين، وجعل الصبر خلقًا إيمانيًّا نؤجر على التمسك به، بل جعله من تمام توحيد العبد ربه وذلك بأن يصبر على العمل بطاعته، ويصبر على البعد عن معصيته، ويصبر على أقداره؛ كل ذلك تقربًا إليه سبحانه، ورجاء لثوابه، وخوفًا من عقابه.

إنّ الصبر يعين المسلم على السير إلى الأمام في طريق نفـع دينـه ووطنه، وذلك بعد التأمل في ثوابه، والتبصر في عاقبتـه، والائتسـاء بالقدوات والنمـاذج العظيمـة، فبالصـبر يطمئن قلب العبـد وتسـكن روحـه، ويقـوى إيمانـه ويـزداد يقينـه، ولـذلك كـان الصـبر أحـد أهمّ الأخلاق التي أرشـد اللـه إليهـا ورسـوله، وورد في الكتـاب والسـنة فضل أهله وثوابهم، وما لهم في الآخرة من الأجر الجزيـل والثـواب العظيم.

فهلم بنا نمتع العيون ونرقق القلوب ببعض أخبـار الصـبر وأحاديثـه، نتعرف إلى معناه وأنواعـه، ونطّلـع على فضـيلته ومنزلتـه، ونحيـط علمًا بمجالاته، ونتعرف على الأسباب المعينة عليه، ونتائجه الطيبــة في النفس والواقع.

سائلين الله تعالى أن يحفظنا في كل وقت بعينه الـتي لا تنـام، وأن يكلأنا بكلئه الذي لا يرام ولا يضام.

ما هو الصبر؟

الصبر هو حبس القلب عن الجزع، وحبس النفس عن التسخط، وحبس اللسان عن التشكي، وحبس الجوارح عن فعل ما يغضب الله -عز وجل-.

وهذا هو الصبر الجميل الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله: "فاصبر صبراً جميلاً".

قال ابن عباس رضي الله عنهما -يبين ذلك-: الصبر الجميل هو ما لا شكوى فيه إلى أحد غير الله تعالى.

وقال عبد الأعلى بن الحجاج رحمه الله: الصبر الجميل هو ما يكون معه صاحب المصيبة في القوم حيث لا يُدرى من هو.

إنّه لحسن صبره لا يظهر أي رجل هو من بينهم.

إنّ الصبر الجميل هو الصبر المطَمئِن الذي لا يصاحبه سُخط ولا قلق، ولا الشك في صدق الوعد الذي وعده العبد على سعيه وعمله.

صبر الواثق من العاقبة، الراضي بقضاء الله وقدره، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء، الموصول بالله المحتسب لكل شيء عنده مما يقع به[1].

قال علي رضي الله عنه: إن من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك[2].

وبهذا لا ينال أحدٌ أجر الصبر إلا إذا حفظ قلبه، ولسانه، وجوارحه عن الشكوى لغير الله.

أما الشكوى لله فلا حرج فيها على الإطلاق.

فالتحقيق أن الشكوى نوعان: شكوى إلى الله وشكوى من الله، أما الشكوى إلى الله تعالى فلا بأس على صاحبها أبداً ولا مؤاخذة

---

[1] () في ظلال القرآن (6 / 330).

[2] () مختصر منهاج القاصدين (ص264).

عليه فيها، كيف وقد لجأ إليها أنبياء الله ورسله وصحابة النبي والصالحون من أمته؟

ألم يقل الله -عز وجل- عن نبيه أيوب -عليه السلام-: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} [ص: 41، 42]

وقال سبحانه عن نبيه يعقوب -عليه السلام-: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[يوسف: 86]

وقال عز من قائل عن نبيه نوح -عليه السلام-: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}[القمر: 10، 11].

وقال عن أفضل رسله وخاتم أنبيائه نبينا -صلى الله عليه وسلم-: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: 30].

فهذه شكوى إلى الله، وهي عبارة عن رجاء ودعاء ورغبة والتجاء.

لا بأس على الإطلاق أن يلجأ العبد إلى هذا، بل هو الحق والخير والهدى؛ أن يلجأ إلى الله ويرغب إليه، ويناديه، ويناجيه.

مددت يد الرجاء والناس قد رقدوا ... وبت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كل نائبة يا ... من عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها ... ما لي على حملها صبر ولا جلد

لقد مددت يدي بالذل مفتقرًا ... إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنّها يا رب خائبة ... فبحر جودك يروي كل من





قال ربّنا - عز وجل- عن زكريا عليه السلام: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}[مريم: 3 - 6]

ولذلك جاءتهما الإجابة والتلبية سريعة من الله: وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)[الأنبياء: 89، 90]

هذه هي الشكوى إلى الله، وهي كما ترى – عزيزي القارئ - رغبة ورجاء وتقرب وتزلّف إلى الملك -سبحانه وتعالى- فهي في الحقيقة قُربى لا شكوى.

وعلى الضد منها تماماً الشكوى من الله؛ فإنها سخط وتضرّم وتبرّم من أقدار الله -عز وجل!

نسمع هذا من بعض أهل البلاء الذين نزلت بهم بعض الأقدار المؤلمة، فتظهر هذه الشكوى على ألسنتهم في تعبيرات شتى؛ فمن قائل: أما وجد الله بين السماء والأرض من خلقه إلا أنا؟

ومن قائل: هي كل بلوى في الدنيا تنزل على فلان، أليس في الدنيا إلا فلان، كل مصائب الدنيا على رأس فلان، أليس هناك غيري، أما وجدت إلا أنا، وهكذا.

وربما لا تظهر هذه الألفاظ على الألسن، لكنّ القلوب تكنّها وتحويها، والعبارات تحوم حولها وتلفت الأسماع رغمًا إليها في لحن قولها، كما جاء رجل يوماً إلى الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله يشكو إليه شدة حاجته وفقره، فأكثر وأطال، حتى أحس أبو حامد منه سخطاً ونقمة على الرحمن جل جلاله، فأراد أن يرده الى صوابه، لكن بطريقة حسنة سهلة راشدة، فقال: يا فلان! إني أعرف رجلاً من أهل اليسر والغنى في مكان كذا وكذا وقد ابتلاه

الله بالعمى، فهو يريد عيناً يبصر بها، أتعطيه إحدى عينيك ويعطيك عشرة آلاف؟ فأجاب الرجل على الفور: لا.

قال أبو حامد: أفتعطي الكسيح رجلاً بعشرة آلاف؟

قال: لا.

قال أبو حامد: فتعطي الأشل يداً بعشرة آلاف.

قال: لا.

قال أبو حامد: أفتعطي الأصم أذنًا بعشرة آلاف؟

قال الرجل: لا.

واستمر الإمام يعدّد على الرجل نعم الله الظاهرة فقط، كلّ ذلك والرجل يقول: لا، ثم قال أبو حامد: يا هذا إنّ معك من الأموال بحساب ما يظهر عليك من نعم الله ما يزيد على ألف ألف، فكيف بما خفي؟! يقول له: أنت ملياردير، ومثلك لا تحق له الشكوى. ورحم الله الذي قال:

لا تسألن بُني آدم حاجة	وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله	وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال آخر:

فإذا شكوت إلى ابن آدم حاجة	فإنك تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ولذلك إذا نزلت بأحد فاقة من فقر أو بلاء أو غيرها فأنزلها بالله قضاها الله له، ومن نزلت به حاجة فأنزلها بالناس لم يقضها الله له أبداً.

هذا سرٌّ من أسرار قبول الدعاء وتفريج الكروب والإخلال به هو سبب عدم استجابة الله لنا في كثير من أدعيتنا، ولا يعرفه الكثيرون، وهو أننا ننزل حوائجنا بالنّاس أولاً ونتذكر الله آخراً.

هذا إذا تذكرناه.

وبرهان ذلك ما روى أبو داود بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى إما بموت عاجل أو غنى عاجل"[3].

هذا هو تحقيق مسألة الشكوى أنها نوعان: شكوى إلى الله وهي لا تنافى الصبر بل تدعمه وتقويه، وشكوى من الله وهي تضاد الصبر وتجافيه وتنافيه.

أقسام الصبر: ولمكانة الصبر في الإسلام نجده يدخل في كلّ جانب من جوانبه، ففي الطاعة صبر، وفي المعصية صبر، وفي حال الرخاء صبر، وفي حال الشدة صبر، ولذلك من المناسب أن نشير إلى أنّ الصبر ينقسم في مجمله إلى ثلاثة أقسام: صبر على المأمور، وصبر عن المحظور، وصبر على المقدور.

صبر على المأمور: أما الصبر على المأمور فهو الصبر على طاعة الله -عز وجل-، فالطاعة تحتاج إلى صبر، لأنّ فيها تكليفًا يختبر الله به عباده، ليعلم سبحانه من يقوم به ومن يهمله، كما قال الله -عز وجل-: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: 45]

فالطاعة تحتاج إلى صبر ومجاهدة ومرابطة ومصابرة حتى تؤتي ثمارها بإذن ربها، وأن يصبر العبد كذلك على أدائها على الوجه المشروع برضا ومحبّة، وأن لا تكون آلية، ميكانيكية، يؤديها العبد ولا يحس حلاوتها ولا يذوق لذتها، أمّا من أقبل على الطاعة وهو لها محبٌّ وبها عارفٌ ولآثارها ملتمسٌ، فإنّه يذوق من حلاوتها ويجد من راحتها ما يطيب له قلبه وتقر له عينه، ولذلك قال من قال من علماء السلف: عالجت قيام الليل سنة ثم استمتعت به عشرين سنة فالطاعة تحتاج إلى صبر حتى تنتج لذتها وحلاوتها، "فوا أسفاه وواحسرتاه، كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شمّ لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل انتقال المفاليس، فكانت

---

[3]() أخرجه الترمذي (2327) والحاكم (1/ 408) والبيهقي (4 / 196)، وانظر الصحيحة (6 / 676).

حياته عجزًا وموته كمدًا، و معاده حسرة وأسفًا، اللهم فلك الحمـد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المسـتغاث، وعليـك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك!"[4].

والمطيع يحتاج إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

أ- قبل الطاعة أي العمـل: وذلـك بتصـحيح النيـة والإخلاص والصـبر على شوائب الرياء، وهو من الصبر الشديد عنـد من يعـرف حقيقـة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد النفس؛ وقد نبه النبي صـلوات الله عليه إذ قال:"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"[5].

ب- أثناء العمل: كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله...فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، ولعله المراد بقوله تعـالى:"نِعْمَ أَجْـرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا"(العنكبوت 58) أي صبروا إلى تمام العمل؛

جـ- بعـد الفـراغ من العمـل: إذ يحتـاج إلى الصـبر عن إفشـائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر على النظـر إليـه بعين العجب، كما قال تعالى "وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ" (محمد43)[6].

صبر عن المحظور: القسم الثاني من أقسـام الصـبر: صـبر عن المحظـور، وهـو الصـبر عن المعصـية والـذنوب والسـيئات، فبهـذا الصبر يحجز العبد نفسه الأمارة بالسـوء عن ارتكـاب المعصـية، ولا يسارع إليها أول ما تدعوه، بل يجاهدها ويجاهد شيطانها، وهذا إنمـا يتأتي بالصبر، أن يكون للمرء عزم فلا يسـارع إليهـا، وأن يكـون لـه قوة تذكّر نفسه الخير وتبصرها به، وتحذّرها من الشر وتنذرها إيّـاه، وتطلعهـا على عـواقب الأمـور حين تـذهب حلاوة المعصـية وتبقى حسـرتها ونـدامتها، وأن تعظهـا بـأحوال السـابقين ممن نـزلت بـه عقوبة الله عليهم جرّاء معاصيهم.

بهذا يحصـل الإنسـان على الصـبر من نفسـه فتمتنـع عن المعصـية وتقلع عنها.

إنّ الله عـز وجـل أعـزّ وأكـبر من أن تنفعـه طاعـة العبـد أو تضـره معصيته، وهو القائل في الحديث: "يا عبادي! إنّكم لن تبلغوا ضـري

[4]() طريق الهجرتين (ص211)، ابن القيم، ط السلفية.
[5]() رواه البخاري (1)، ومسلم (64).
[6]() الإحياء (4/62)، بتصرف.

فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعـوني"[7]، بـل هـو الغـنيّ سـبحانه، إنما النفع والضرّ عائد على العبد، فلينظر كل امرئ ما ينفعه فيأتيــه والله مثيبه على ذلك، وما يضرّه فيجتنبـه، واللـه يـأجره على ذلـك، أفبعد هذا فضل؟! فسبحان الوهّاب!

صبر على المقدور: القسـم الثـالث: هـو الصـبر على المقـدور، بالصـبر على أقـدار اللـه مما يصـيب اللـه بـه عبـاده من الأمـراض والأوجاع وجميع المصائب، وهذا هو محك الإيمـان ومختـبر الإسـلام والاستسلام والإيقان، ولـذلك جـاء الفضـل فيـه في القـرآن العظيم وسنة النبي الكريم كثيرًا جدًّا وحثت عليه الآيـات والأحـاديث والآثـار عن السلف وسارع فيه المتنافسون وفاز في دربه المتسابقون.

إنّ البلاء سُنَّة الله الجارية في خلقـه وهـو قـرين العبـد مـا دام حيًّا، تنزل به المصائب وتحط عليـه الآلام، ويختـبر بهـا في نفسـه ومالـه وأهله وولده، وربما في دينه، وعلى قدر دينه يشدّد لــه في البلاء أو يخفف: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ - رضي اللـه عنـه - قَـالَ: قُلْتُ: يَـا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ ، فَقَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ ، وَمَا يَـزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ ، حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ "[8].

هذه فلسفة المصائب للمـؤمن؛ أنهـا –أولًا- من اللـه، وأنهـا –ثانيًـا- لاختبـاره في صـبره على أقـدار اللـه، وأنهـا – ثالثًـا - طريقـه إلى السعادة وزيادة، إن قابلها بمـا يتـوجب على المـرء أن يقابـل شـيئًا أتاه من عنـد اللـه، فـإن جـزع وسـخط كـان لـه السـخط، كمـا في الحديث: وَقالَ النَّبيُّ صلى الله عليـه وسـلم: "إنَّ عِظَمَ الجَـزَاءِ مَـعَ عِظَمِ البَلاَءِ ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ"[9].

وعلى المؤمن أن يرضى بقضائه تعالى، ويعلم أنه لا مُعَقِّبَ لِحُكْمه، وليتضـرع إلى اللـه دومًـا لكشـف المصـيبة، وليتأمـل في دروسـها وعبرها، والحكمة منها.

---

[7]() رواه مسلم (2577).

[8]() رواه أحمد (1481) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (992).

[9]() رواه الترمذي وغيره وصححه عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (2110).

فضل الصبر ومكانته

ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعاً من القرآن الكريم، وكفى الصبر وأهله بهذا شرفًا وفضلاً، وحسبهم بذلك حثًّا عليه وترغيبًا فيه، ولا نستطيع في مقامنا هذا أن نشير إلى جميع هذه المواضع، لكن نذكر منها قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200]

وأول ما تنتبه له الفكرة في هذه الآية الكريمة هو فعل الأمر الذي يفيد الوجوب!

فالصبر ليس نافلة، ولا مستحبًّا، لا ، إنما هو واجب، ففرضٌ على العبد أن يصبّر نفسه على تنفيذ طاعة الله، واجتناب معصية الله، وعدم الجزع عند ابتلاءات الله.

ومن الآيات الموضحة لمكانة الصبر قوله تعالى: "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور". لا يوفق للصبر إلا أهل العزائم، وهو شيمة طلاب المعالي!

وقال -عز وجل-: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: 10].

وهذه الآية من الآيات العظيمة التي تكشف عن أجر الصابرين عند الله، ، إنّه بغير حساب، ليس على قدر البشر، بل على قدر الله - عز وجل - الذي لا يتصوّر عطاءه عقلٌ فيقدّره!

ومن أعظم ما يوضّح مكانة الصبر ويبين شرفه – إن لم يكن أعظمه- قوله -عز وجل-: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }

[الأنفال: 46]، فيكفي الصبر شرفًا أنه المؤهل الذي يستحق به أصحابه معية الله وصحبته.

لقد ذهب الصابرون بالأجر الجزيل في الدنيا والآخرة!

وكيف لا ؟ وقد روى مسلم من حديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله: "الصبر ضياء"[10].

الله ! أرأيت إلى هذا التعبير: "والصبر ضياء"؟! يعني يضيء للإنسان طريقه ليرى الجادّة فيسلكها.

عندما تحتلك الظلمات وتشتد الكربات يهدي الصبر صاحبه إلى الحق، ومن ثمّ أمر الله -عز وجل- خلقه بالاستعانة به، فقال سبحانه: "واستعينوا بالصبر"، فهو ضياء للإنسان في قلبه، وضياء له في طريقه ومنهاجه وعلمه، فكلما سار العبد إلى الله على طريق الصبر زاده الله هدى وضياء وبصيرة[11].

إنّ الصبر رفيق العبد في جميع أحواله وروى مسلم من حديث صهيب -رضي الله عنه- أن النبي قال: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن".[12].

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي قال: "وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر".[13]

الله ! من رضي فله الرضا، ومن صبر فله الخير كله، ولنا في السابقين الصادقين الأسوة والقدوة، أين الذين صبروا ورضوا بما آتاهم الله من فضله فمحمد صلى الله عليه وسلم إمامهم إلي الجنة.

أين الذين صبروا عن المعصية فاجتنبوها وقد اقتدروا عليها، ولم يقربوها مخافة الله، فيوسف -عليه السلام- إمامهم إلي الجنة.

---

[10]() أخرجه مسلم (556).

[11]() شرح رياض الصالحين (4 / 16).

[12]() أخرجه مسلم (7692).

[13]() أخرجه البخاري (1469)، ومسلم (2471).

أين الذين صبروا في البلاء وقابلوا قدر الله فيه بما أحب، فأيوب - عليه السلام- إمامهم إلي الجنة.

أيها الحبيب! من علامات حب العبد لله: أن يكون صابراً، فالصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، فإنَّ بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب، يُعلم صحة محبته، ولهذا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى، فلما امتحنهم بالمكاره، ظهروا على حقيقتهم، ولم يثبت إلا الصابرون، فلولا تحمّل المشاق، وتجشم المكاره، بالصبر، لما ثبتت صحة محبتهم، انظر رعاك الله، كيف وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: { إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً }، ثم أثنى عليه قائلاً: { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}، وأمر الله أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه وأخبر أنَّ صبره به وبذلك تهون جميع المصائب فقال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } وقال: { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ } وأثنى الله على الصابرين أحسن الثناء فقال: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.

ونعود فنردد ما قال سيد الصابرين صلى الله عليه وسلم: "وما أُعطي أحدٌ عطاءً خير وأوسع من الصبر"[14].

وقال سبحانه: { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }.

فهنيئاً لهم بشارة ربهم، وهنيئاً لهم: { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}"[15].

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وسنده حسن من حديث أنس أن النبي قال: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط"[16].

وهذا الجزاء لمن صبر الصبر الجميل الذي أشرنا إليه في البداية، فمن كان حاله كذلك نال هذا الأجر والثواب والفضل، فليس كل أحد على هذه الدرجة ليس أهل الصبر كلهم سواء في تلقي أمر

---

[14]() رواه مسلم (1053).

[15]() يحبهم ويحبونه، خطبة للشيخ خالد الراشد.

[16]() أخرجه الترمذي (2 / 64) و ابن ماجه (4031)، وانظر: الصحيحة (1 / 227).

الله وقدره، بل يختلفون في أحوالهم ويتباينون في مواقفهم، ولذلك كان تلقي البلاء بالشكر والرضا هو محك اختبار الإيمان وبه تستبين درجة العبد ويظهر قدره كما قدمنا في حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه"[17] فلا ريب أن ينزل الصبر تلك المنزلة من كتاب الله وسنة رسوله، حتى قال علي رضي الله عنه: "ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له"[18].

نجوم في سماء الصبر

هذه مكانة الصبر، وتلك فضائله، ولذا تنافس المتنافسون في تحصيل هذا الثواب العظيم، أنبياء الله والصالحون، ومنهم نبي الله أيوب الذي لبث في البلاء ثمانية عشر عاماً ومع ذلك استحيا أن يسأل الله العافية حتى يكون له من النصيب في البلاء قدر ما كان له في العافية ولنستمع إلى شيء من خبره فيما أخرجه الحاكم وابن حبان والطبري والبزار وقال الهيثمي رجال البزار رجال الصحيح من حديث أنس بن مالك أن النبي قال: "إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَة، فَرَفَضَه القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، إلا رَجُلانِ مِنْ إخْوَانِهِ كانا مِنْ أخَصِّ إخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوانِ إلَيْهِ ويَرُوحانِ، فَقالَ أحَدُهُما لِصَاحِبه: تَعْلَم والله لَقَدْ أذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا ما أذْنَبَهُ أحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: ومَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ الله فَيَكْشِفَ ما بِهِ; فَلَمَّا رَاحا إلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فقَالَ أَيُّوبُ: لا أَدْرِي ما تَقُولُ، غَيرَ أنَّ الله يَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ أمُرُّ على الرَّجُلَيْنِ يَتَنازَعانِ فَيَذْكُرَانِ الله، فَأرْجِعَ إلى بَيْتِي فَأكَفِّرُ عَنْهُما كَرَاهِيَةَ أنْ يُذْكَرَ اللهِ إلاَ في حَقّ; قال: وكان يَخْرُجُ إلى حاجَتِهِ، فإذَا قَضَاها أمْسَكَت امْرأتُه بِيَدِهِ حتى يَبْلُغ فَلَما كانَ ذاتَ يَوْمٍ أبْطَأَ عَلَيْها، وأوحِيَ إلى أيُّوب في مَكانِهِ:(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا

---

[17]() تقدم تخريجه.

[18]() الصبر والثواب عليه (ص24)، ابن أبي الدنيا.

مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)فاسْـتَبطأتَهُ، فَتَلقتـهُ تَنْظُـرُ، فأقْبَـلَ عَلَيْهَـا قَـدْ أذْهَبَ الله مـا بِـهِ مِنَ البَلاءِ، وَهُـوَ عَلى أحْسَـنِ مـا كـانَ; فَلَمَّا رَأتْـهُ قَالَتْ: أيْ بارَكَ الله فِيكَ، هَـلْ رَأيْتَ نَبِيَّ اللـه هَـذَا المُبْتَلى، فوالله على ذلك ما رَأَيْتُ أحَدًا أشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إذْ كانَ صحيحا؟ قال: فإنّي أنا هُوَ; قال: وكانَ لَهُ أنْدرَانِ: أنْـدَرٌ لِلْقَمْحِ، وأنْـدَرٌ للشَّـعِيرِ، فَبَعَثَ اللـه سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كانَتْ إحْداهُما على أنْدَرِ القَمْحِ، أفْرَغَتْ فِيـهِ الـذَّهَبَ حـتى فَـاضَ، وأفــرغَتِ الأخْـرَى في أنْـدَرِ الشَّـعِيرِ الـوَرِق حـتى فاضَ"[19].

قال الله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّـنِيَ الضُّـرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَـهُ فَكَشَـفْنَا مَـا بِـهِ مِنْ ضُـرٍّ وَآتَيْنَـاهُ أَهْلَـهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَـةً مِنْ عِنْـدِنَا وَذِكْـرَى لِلْعَابِـدِينَ } [الأنبيـاء: 83، 84].

نعم

[19]() تفسير الطبري (23/107) ورواه البزار في مسنده (2357)، كشف الأستار، وهو في الصحيحة (1 / 25).

كن عن همومــــك معرضا	ودع الأمـــــور إلى القضا
وانعم بطـــــــول ســــــــــلامة	تغنيك عما قد مضى
فلربمـــــا اتســـع المضـــــــــيق	وربمـــا ضــاق الفضا
الله يفعل ما يشــاء	فلا تكن متعرضا

والمثل الأعلى للمبتلين الصـابرين: المصـطفى الـذي عـاش طـوال أيامه ولياليـه يمشـي على شـوك الأسـى ويخطـو على جمـر الكيـد والعنت يتلمس الطريق لهداية الضالين وإرشاد الحـائرين فنالـه في سبيل ذلك ما لم ينل نبياً فضلاً عن صديق أو صادق.

روى البخـاري من حـديث عَائِشَـةَ - رضـى اللـه عنهـا – زَوْج لنَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِىِّ -صلى اللـه عليـه وسـلم - هَـلْ أَتَى عَلَيْـكَ يَـوْمٌ كَانَ أَشَـدَّ مِنْ يَـوْمِ أُحُـدٍ قَـالَ «لَقَـدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَـا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَـوْمَ الْعَقَبَـةِ، إِذْ عَرَضْـتُ نَفْسِى عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْـدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِى إِلَى مَـا أَرَدْتُ، فَـانْطَلَقْتُ وَأَنَـا مَهْمُــومٌ عَلَى وَجْهِى، فَلَمْ أَسْـتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَـا بِقَــرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِى، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِى، فَنَظَـرْتُ فَـإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِى فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَـا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَـا شِـئْتَ فِيهِمْ، فَنَـادَانِى مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَىَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَـالَ ذَلِـكَ فِيمَـا شِـئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِىُّ - صـلى اللـه عليـه وسلم - بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُـدُ اللَّهَ وَحْـدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[20].

وأمتنـا الإسـلامية -على مـر عصـورها- لم تخـل من نمـاذج عظيمـة وقمم سامقة، في شتى نواحي الحياة، وهم في جانب الصـبر كـثر، ومن أمثلة الصبر العليا والنجوم في سمائه: بلال بن ربـاح الحبشـي مؤذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

وقد كان عبداً لأمية بن خلف فلما بعث رسول اللـه اتبعـه وآمن بـه وصدقه على ما جاء به فكـان أميـة يمنعـه الطعـام والشـراب يومـاً

[20]() أخرجه البخاري (3231) ومسلم (1795).





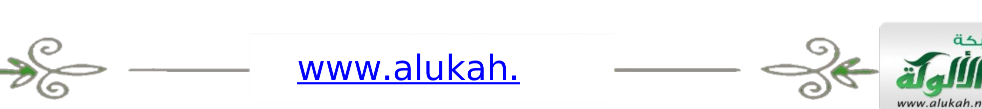
ويومين حتى يشتد به الجوع والعطش ويخرج بـه إلى الصـحراء في شدة الحر وسط الظهيرة فيجرده من ثيابـه ويضـعه على الرمضـاء ويعذبه ويقول: لا تزال هكذا حتى تكفـر بمحمـد أو تقـول في اللات والعزى خيراً،قال ابن مسعود هانت عليه نفسه في الله وهـان على قومه، هانت على بلال نفسـه في اللـه فـأبى إلا أن يغيـظ أميـة بن خلف وسائر المشركين، كلما قـالوا لـه: لا تـزال هكـذا حـتى تكفـر بمحمد يأبى ذلك ويصر أن يتمسك بالإسلام ويعض عليه ويثبت عليه ويأبى إلا أن يغيظ المشـركين بـالنطق بكلمـة التوحيـد تحت سـياط التعذيب فيقول: أحدٌ أحد، أحـدٌ أحـد، فهـانت عليـه نفسـه في اللـه وهـان على قومـه فجعـل أميـة بن خلـف مـولاه الحبـل في عنقـه وأعطاه غلمان مكة فجعلوا يلعبون به في شعاب مكة وطرقها وهو يقول: أحد أحد [21]

ولو ذهبنا نتتبع ما نـال التعـذيب والابتلاء من أصـحاب النـبي لأعيانـا الحصر، ولكن بحسبنا هذا المثال وما نعلم.

وهذا تابعيّ جليل على خطى الصحابة، إنه أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي التابعي الجليل، كان – رحمه الله - من عبـاد أهـل البصـرة وزهادهم، حدث بقصة موتـه – فيمـا حكى ابن حبّـان- عبـد اللـه بن محمد قال: خرجت إلى ساحل البحـر مرابطًـا وكـان رباطنـا يومئـذ عريش مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة –مكان واسع فسيح- وفى البطيحة خيمة فيها رجل قـد ذهب يـداه ورجلاه، وثقل سمعه وبصره، وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه، وهو يقول: اللهم أوزعنى أن أحمدك حمدًا أكافىء به شكر نعمتك الـتي أنعمت بها علي وفضلتنى على كثير ممن خلقت تفضيلًا، قـال عبـد اللـه بن محمد: قلت: واللـه لآتين هـذا الرجـل ولأسـألنه أنّى لـه هـذا الكلام فهمٌ أم علمٌ أم إلهامٌ ألهمه، فـأتيت الرجـل فسـلمت عليـه، فقلت: سمعتك وأنت تقـول: "اللهم أوزعـنى أن أحمـدك حمـدًا أكـافئ بـه شكر نعمتك الـتي أنعمت بهـا على وفضـلتنى على كثـير من خلقت تفضيلًا"، فأي نعمـة من نعم اللـه عليـك تحمـده عليهـا وأي فضـيلة تفضّل بها عليك تشكره عليها؟! قال: وما ترى مـا صـنع ربي، واللـه لو أرسل السماء علي نارًا فأحرقتنى وأمـر الجبـال فـدمرتنى وأمـر البحار فغرقتنى وأمر الأرض فبلعتنى ما ازددت لربى إلا شكرًا؛ لمـا أنعم على من لساني هذا.

[21]() طبقات ابن سعد (232/3).

ويا عبد الله! إذ أتيتني لي إليك حاجة قد تـراني على أي حالـة أنـا، فأنا لست أقدر لنفسى على ضر ولا نفـع، ولقـد كـان معي بـنيٌّ لي يتعاهـدني في وقت صـلاتي فيوضـئني، وإذا جعت أطعمـني، وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منـذ ثلاثـة أيـام فتحسسـه لي رحمـك الله!
فقلت: والله ما مشي خلـق في حاجـة خلـق كـان أعظم عنـد اللـه أجرًا ممن يمشي في حاجة مثلـك، فمضـيت في طلب الغلام، فمـا مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل، فـإذا أنـا بـالغلام قـد افترسـه سـبع وأكـل لحمـه، فاسـترجعت، وقلت: أنّي لي وجـه رقيق آتى به الرجل، فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلـبي ذكـر أيوب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أتيته سلمت عليه فرد عليّ السـلام، فقـال: ألسـت بصـاحبي؟ قلت: بلى، قـال: مـا فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيـوب النبي! قلت: هل علمت ما صنع به ربه؛ أليس قـد ابتلاه بمالـه وآلـه وولده؟ قال: بلى قلت: فكيـف وجـده؟ قـال: وجـده صـابرًا شـاكرًا حامدًا، قلت: لم يرض منه ذلـك حـتى أوحش من أقربائـه وأحبائـه، قال: نعم، قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابرًا شاكرًا حامدًا، قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيره عرضًـا لمـار الطريـق -يعـني أهلك داره-، هل علمت؟! قال: نعم، قلت: فكيف وجده ربـه؟ قـال: صابرًا شاكرًا حامـدًا، أوجـز رحمـك اللـه! قلت لـه: إنّ الغلام الـذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع فأكـل لحمه، فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر! فقـال المبتلى: الحمـد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقًا يعصيه فيعذبه بالنار، ثم اسـترجع -قال: إنا لله وإنّا إليه راجعون-، وشهق شهقة فمات، فقلت، إنا لله وإنا اليه راجعون، عظمت مصيبتي!، رجل مثل هذا إن تركتـه أكلتـه السباع وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع، فسجيته بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكيًا، فبينمـا أنـا قاعـد إذ أقبـل عليّ أربعـة رجال، فقالوا: يا عبد الله! ما حالك، ومـا قصـتك؟ فقصصـت عليهم قصتي وقصته، فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهـه فعسـى أن نعرفـه، فكشفت عن وجهه، فانكبّ القوم عليـه يقبلـون عينيـه مـرة ويديـه أخرى، ويقولون: بـأبي عينٌ طالمـا غضّـت عن محـارم اللـه، وبـأبي جسم طالمـا كنتَ سـاجدًا والنـاس نيـام، فقلت: من هـذا يـرحمكم الله؟ فقالوا: هذا أبو قلابة الجـرمي، صـاحب ابن عبـاس، لقـد كـان شديد الحب لله وللنبي صلى اللـه عليـه وسـلم، فغسـلناه، وكفنـاه



بأثواب كانت معنا، وصلينا عليه، ودفناه، فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطى، فلما أن جنّ عليّ الليل وضعت رأسي، فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 24]، فقلت: ألست بصاحبي؟ قال: بلى، قلت: أنى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز و جل في السر والعلانية[22].

كيف نحصّل الصبر؟

هذه بعض نماذج من حياة الصابرين، وأخبارهم لا تحصى، والسؤال: كيف نكون مع أفراد هذا الموكب الكوكبي الدري والنجم الساطع الضوئي، كيف نكون من الصابرين ونحصل درجتهم ونشرف بمكانتهم ؟

والجواب في نقاط:

أولاً: الاستعانة بالله، فإن صبر المؤمن يكون بالله تعالى، كما قال -عز وجل- {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127] يعني أنه من لم يصبره الله ويوفقه للصبر لم يصبر، وكذلك ينبغى ان يكون الصبر لله، أي: حبًّا له، وإرادة لوجهه، ورغبة في ثوابه، لا لإظهار قوة النفس أو استجلاب الحمد من الناس، وينبغي أن يكون الصبر مع الله، والصبر مع الله هو أن يكون العبد مع أحكام الله الدينية صابراً نفسه معها سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها، حيث كانت، وليس كمن يصبر على تعذيب نفسه في غير مرضاة الله مثل صبر المشركين القائلين: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [ص: 6][23].

فالله -عز وجل- هو المعين على الصبر لمن أراد، وهو الموفق الهادي له، كما قال علقمة في تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ

[22]() الثقات لابن حبان (5/ 7).
[23]() فضل الغني الحميد (ص32)، وجنّة المؤمن (135).

بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: 11] قال -رحمه الله-: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم[24].

وهذه الهداية -أيها الكريم!- هي هداية التوفيق، ومن هذه الهداية: هداية الله عبده إلى الرضا والتسليم، فمن أصابته مصيبة فعلم أنها من قدر الله فصبر واحتسب؛ هدى الله قلبه لليقين، وعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعوضه الله عما فاته من الدنيا هدىً في قلبه ويقيناً صادقاً ويُخلف عليه خيراً مما فاته.

فعلى المؤمن التضرع إلى الله ودعائه لاستجلاب هذه المعونة.

ثانيًا: الإيمان، فالإيمان خير معين، الإيمان بلسم الحياة، وأسّ الفضائل ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزم في الشدائد، وبلسم العبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة بالحظوط، ونور الأمل في الصدور وسكن النفوس، وعزاء القلوب إذا أوحشتها الخطوب، والعروة الوثقى عند حلول الموت بسكراته العظمي[25].

ولله در معاذ بن جبل وحاله لما أصابه الطاعون، يقول الحارث بن عميرة: طعن معاذ وأبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة وأبو مالك الأشعري في يوم واحد، فقال معاذ: إنه رحمة ربكم -عز وجل- ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم وقبض الصالحين قبلكم، ثم دعا فقال: "اللهم آت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة"، فما أمسى حتى طعن ابنه عبد الرحمن بِكرُه الذي كان يكنّى به وأحبّ الخلق إليه، فرجع من المسجد فوجده مكروباً، فقال: يا عبد الرحمنّ كيف أنت؟ فاستجاب له فقال: يا أبت! {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران: 60] فقال معاذ: وأنا إن شاء الله ستجدني من الصابرين، فأمسكه ليلة ثم دفنه من الغد، فطعن معاذ، فاشتد به نزع الموت، وقد نزع نزعاً لم ينزعه أحد، وكان كلما أفاق من غمرة فتح عينه ثم قال: رب اختقني خنقتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك[26]!

هات ما عندك هات *** معي الإيمان يهديني لبحر الظلمات

---

[24]() أخرجه ابن جرير في التفسير (28 / 123).

[25]() من خطبة لفضيلة لشيخ علي القرني، بعنوان: سفينة النجاة.

[26]() حلية الأولياء (1 / 127).

بلســـم الإيمـــان ينجي *** مركبي والمـــوج عـاتي

هل ترى الإعصــار يومًا *** هــزَّ شُمًّا راســـيات؟!

فالإيمان - بعـد عـون اللـه وتوفيقـه - أعظم الأسـباب المعينـة على الصبر.

ثالثـاً: أن يتصـبر العبد –يعـني يأخـذ نفسـه بتعلّم الصـبر درجـة درجة، فيتعوّده ويكون ديدنه، كما قال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم: "ومن يصبر يصبره اللـه"[27]، أي: يقويـه ويمكّنـه من نفسـه حتى تنقاد له، ويذعن لتحمـل الشـدة، فعنـد ذلـك يكـون اللـه معـه فيظفره بمطلوبه[28].

إنّ الصبر بالتصبر، وكذلك بقيّة الأخلاق والعلـوم والعـادات، فـالحلم بالتحلّم، والعلم بالتعلّم، والطبع بالتطبّع[29].

فـإذا عـوّد العبـد نفسـه الصـبرَ تعـوّدت، وأخـذت بـه، وتـدرّجت في درجاته حتى إنها لتضرب فيه نماذج تشبه المستحيل.

رابعًا: أن يعرف فضل الصبر ودرجة الصابرين؛ فمن عــرف فضل الصبر حمَل نفسه عليه حملاً، وينسـيه ذلـك مـرارةَ المصـاب والبليّة، كما ورد أن بعض السـلف أصـيبت أصـبعه، فتبسـم، فعجب من رآه، وقـال: تبتسـم وقـد انقطـع أصـبعك؟! فقـال: نعم؛ حلاوة أجرها أنستني مرارة ألمها[30].

فـإذا تـذكر العبـد أمثـال قولـه تعـالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّـابِرِينَ} [آل عمـران: 146] ، وقولـه تعـالى: {إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الصَّـابِرِينَ} [البقـرة: 153]، وقول رسول الله قـال: "إذا أراد اللـه بعبـد خـيرًا عجّـل لـه العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شرًا أمسك عليـه ذنوبـه حـتى يوافيه يوم القيامة"[31].

---

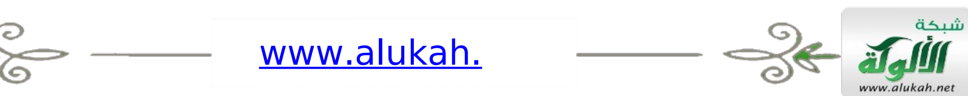
[27]() متفق عليه، رواه البخاري (1469)، ومسلم (1053).

[28]() فتح الباري (11/304).

[29]() هذه أخلاقنا (ص80)، محمود محمد الخزندار، دار طيبة للنشر والتوزيع.

[30]() مدارج السالكين (2 / 167).

[31]()أخرجه الترمذي (2/64)، والبيهقي في الأسماء (ص 154)، وهو في الصحيحة (3/220).



فعلم أن المصيبة مكفّرة ورافعة للدرجات وماحيـة للسـيئات، وعلم أنه على درجة عظيمة في القرب من اللـه تعـالى ومشـابهة أنبيائـه ورسله، وعلى درج الصالحين يسير.

مـات عبـد اللـه بن مطـرّف، فخـرج مطـرّف على قومـه في ثيـاب حسنة وقد ادهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبد الله ثم تخرج في ثياب مثل هذه مدهناً؟!!، قـال: "فأسـتكين لهـا وقـد وعـدني ربي تبـارك عليها ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا كلها؟!

قال الله عزَّ وجلَّ {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَـالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعُـــونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـــلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـــةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 156،157] .. فأستكين لها بعد هذا؟"[32].

إنّ عُمْر الدنيا قصيرٌ وكنزها حقيرٌ، والآخرةُ خـيرٌ وأبقى فمن أُصـيب هنا كُوفِئ هناك، ومن تعب هنا ارتـاح هنـاك، أمـا المتعلقـون بالـدُّنيا العاشقون لها الراكنون إليها، فأشدَّ ما على قلوبهم فوت حظوظُهم منها وتنغيصُ راحتهم فيها لأنهم يريدونها وحدها فلذلك تعظُم عليهمُ المصائبُ وتكبرُ عنـدهمُ النكبـاتُ؛ لأنهمْ ينظـرون تحت أقـدامِهم فلا يرون إلاَّ الدُّنيا الفانية الزهيدة الرخيصة[33].

إنّ المصـيبة زائلـة ولـو بعـد حين، وسـيذهب ضـيقها ويبقى أجرهـا، فليهنأ المسلم ويسـعد، ولا يحـزن نفسـه ويـذهبها حسـرات، وهـذه رسـالة إلى كـل مُبتلى، وكـل النـاس مُبتلى ومُصـاب: هـوِّن على نفسك، فمهما كانت شـدة البلاء سـيأتي الفـرج من اللـه لا محالـة، كـان محمـد بن شـبرمة إذا نـزل بـه بلاء، قـال "سـحابة صـيف ثم تنقشع"[34].

اصبِر قليلًا وكُن بالله معتصِمًا ... لا تَعْجلنّ فإنّ العجزَ بالعَجَل

والصبرُ مثلُ اسمه مُرٌّ مَذَاقُهُ ... لكنْ عواقبه أحلى من العَسَلِ

خامسًا: التعرف إلى ضد الصبر، فالضـد يظهـره حسـنه الضـد وبضـدها تـبين الأشـياء، إلى أين يسـير الجـزع بالعبـد؟ حين تأتيـه المصيبة فيتلقاها بالسخط، لنقف على مثل قول النَّبِيِّ - صـلى اللـه

[32]() صفة الصفوة (2/ 132)

[33]() لا تحزن (ص53) القرني.

[34]() عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (2/19).

عليه وسلم -: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُـدُودَ، وَشَـقَّ الْجُيُـوبَ، وَدَعَـا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»[35].

إنّه مثال لأقوال وأفعال قوبلت بها المصيبة، فماذا كـانت العاقبـة؟! الطرد من بسـتان الأخيـار (ليس منّـا)، هـو من الجاهليّـة، ليس من الإسلام ولا من أخلاقه!

لنتعرف على مثل قوله صلى الله عليـه وسـلم: «اثْنَتَـانِ فِى النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِى النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[36].

إنّ السخط على أقدار الله والجزع حيالها لا يغيّر من واقعهـا شـيئًا، إنه يزيد من هَوْلِهَا، بل ويضيف إليها مصيبة أخرى، هي أعظم، لأنهـا تكون وقتئذٍ مصيبة في الدّين والإيمان.

سادسًا: المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا:

الابتلاء لا محيص منـه، فالـدنيا دار امتحـان، وإنّ المسـلم ليبتلى مـا دام حيًّا، فعليه أن يقابل امتحان الله له برباطـة جـأش وصـبر نفس حتى يكون مطيّة له إلى الفـوز برضـا اللـه وسـفينة للعبـور إلى دار النجاح والنجاة.

إنـه لا يسـلم من الابتلاءات والصـراعات إلى أن يمـوت؛ صـراع مـع الواقع، صراع مع النّفس، صراع مع الآخـرين، صـراع مـع جميـع من في الحياة، إنّ المؤمن لا ينفـكّ عن المطالبـة بالطاعـة وهـو يحتـاج معهـا إلى صـبر، ولا تتركـه نفسـه الأمـارة بالسـوء يعاونهـا هـواه وشيطانه إلى ذلك بل يجذبه جميع هؤلاء إلى حفـرة المعصـية وهـو في ذلـك يحتـاج إلى الصـبر، ولا تخلـو الـدنيا من منغصـات العيش وأولياء السوء وأصحاب الشـرور ينازعونـه ولا يتركونـه، فلكـلّ هـذا ينبغي على المرء أن يعدّ عدّة الصبر، وأن يكون على تهيؤ لها أنّها لا تنتهي ولا تنقضي ما دامت الدنيا، فليست الدنيا المدينة الفاضلة ولا دار الخلوّ من المضايقات.

إنّ المصائب والابتلاءات سُنَّة الله في خلقه، {وَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّةِ اللـهِ تَحْوِيلاً} [فاطر: 44].

---

[35]() أخرجه البخاري (1297) ومسلم (103).

[36]()أخرجه مسلم (67).

سابعًا: الاقتداء بأهل الصبر والعزائم:

فليتعرّف المرء على سير الصالحين من قلبنا وليقرأ في حياتهم، ويطالع أخبارهم، فإنه لا شك واجد من سيرهم زادًا طيبًا للائتساء بأحوالهم في التصبّر على الطاعة وقد مرّ قال شريح رحمه الله : إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات؛ أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي عليه، وأحمده إذ رزقني الصبر عليه،. وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجوه فيها من الثواب، وأحمده إذ لم تكن في ديني.

وما أجمل قول ابن القيم "يا مخنث العزم، أين أنت والطريق؟! .. طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمِيَ في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيعَ يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكريا، وذُبِحَ السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داوود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ... وتزهى أنت باللهو واللعب؟!"[37].

بل من تأمّل في خلق الصبر وجد القدوة فيه أعز وأشرف من ذلك، فإن الصبور اسم من أسمائه تعالى ومعناه أنّ الله لا يتعجل في العقاب عندما يسرع الناس بالمخالفة، فعلى المؤمن أن يتحلى بالصبر من هذا الباب، باب التخلّق بأخلاق الله[38].

ثامنًا: التفكّر في النّعم الكثيرة التي يتمتع العبد بها حال السرّاء:

أخي المبتلى! لقد أنعم الله عليك كثيرًا، فإن كنت عند حسن ظنه في نعمائه، فكن عند حسن ظنه بك في بلائه، وإن سلبت منك واحدة، فلا تزال نعم الله تحوطك، لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرَّغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم

[37]() الفوائد (1/ 42).

[38]() انظر في هذا المعنى كتاب خلق المسلم (ص131)، محمد الغزالي.

عدوي إبليس بالذي صنعت، حسدني. قال: فلقي إبليس من ذلك منكرًا[39].

وقال أيوب -عليه السلام-: يا رب! إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطء الفرش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك[40].

هذه بعض الأسباب المعينة على الصبر ويبقى توفيق وهداية المولى -سبحانه وتعالى- الذي لا يكون شيء إلا بإذنه.

معوقات عن الصبر

وكما أن للصبر معينات تعين عليه، فكذلك هناك عقبات تقف في طريقه حتى لا يؤتي ثمرته، فينبغي على العبد أن يتفطّن لها حتى لا تعيقه عن الوصول إلى غايته، ومن هذه المعوقات والآفات:

1- **الاستعجال**: بأن يكون صبر المرء قليل، واستعجاله الفرج دائم؛ فإن جاء وإلا انقلب على عقبيه، بل ينبغي أن يكون للمرء عزيمة على الصبر مهما طال، ولا يتعجّل، كما قال الله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف: 35].

وفي الحديث: "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على

---

[39]() انظر الدر المنثور (4/589).
[40]() تفسير ابن كثير (5/360).

غنمه، ولكنكم تستعجلون"[41]، لا داعي للاستعجال، ستصل إلى مبتغاك يومًا، فاصبر.

2- **الغضب**: فإن الغضب ينافي الصب، وينتقل بالإنسان إلى حال يتعجّل فيها الانتقام، أو يظهر فيها السخط والتبرّم، ويفوّت عليه هذه القيمة الكبيرة للصبر وعاقبته الحسنة، ومن ثم قال الله تعالى لنبيه: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } [القلم: 48 - 50]

3- **الحزن والضيق واليأس**: وقد حذر الله من هذه المعوّقات في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: 127]، وهو دليل على أنّ الصبر ينفي الحزن ويذهبه، وأن الحزن ينافي الصبر ويضيعه، وقال تعالى يأمر بالتعلّق برحمة الله والتبصّر بعواقب الأمور وإخراج اليأس من القلوب عن طريق التماس المصبّرات: { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140)} [آل عمران: 139، 140]. فلا تيأس وتستسلم لتثبيط الشيطان، فإنه لا {يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: 56].

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

[41]() رواه البخاري (6943).





خاتمة

الصبر عن الله!

ومن الجدير أن نلفت الأنظار إلى نوع دقيق من أنواع الصبر عرفه أهل العبادة والقرب، وجهله كثير من النّاس، ألا وهو الصبر عن الله، وهو نوع مذموم، فإذا كان الصبر الذي تحدّثنا عنه كلّه هو صبر محمود مطلوب، فهذا الصبر مذموم، حُكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى؛ فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف[42].

وقد قيل في معنى قوله تعالى {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا} [آل عمران: 200] اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله.

وقيل: الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء[43].

وفي معناه قول الشاعر:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل -أيضًا-:

الصبر يجمل في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل([44])

فيا من لا يزال يتخبط في غيه بعيدًا عن رضا ربه: إنك -يا مسكين- محروم!

يالشدة صبرك عن محبوبك، ينعم عليك بكلّ هذه النّعم وأنت ما تزال في سكرتها غافلًا عمن أنعم بها عليك؟ تالله لو تعي حقيقة ما تفعل لسقطت ميتًا!

---

[42]() تاريخ دمشق (66/61).

[43]() انظر: عدة الصابرين (46،47).

[44]() إحياء علوم الدين (3/181).

نسأل اللـه أن يصـبرنا على طاعتـه، وأن يصـبّرنا عن معصـيته، وأن يجعلنـا من الصـابرين على مقـدوره، وأن يجنّبنـا الصـبر عنـه، فـإنّ الصبر مطيّة النّجاح في كلّ أمر:

ولكم قرّب البعيدَ لك الصبرُ .. وكم بعّد القريب ارتغاب.

اللهم! خذ بأيدينا إليه أخذ الكرام عليـك، وارزقنـا الخـير حيث كـان، وجنّبنا الشرّ.

مراجع

الكتب

1) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن قيم الجوزية، دار الأرقم، لبنان.
2) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، باب الصبر، ط. الوطن.
3) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، باب الصبر، ط. التوفيقيّة.
4) خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان.
5) الصبر جنّة المؤمن، هيا بنت ناصر بن عبد الله الراشد، مؤسسة رسالة البيان.

المواد الصوتية:

1) سفينة النجاة، الشيخ علي القرني.
2) حلاوة الصبر على البلاء، د. عمر عبد الكافي.
3) فصبرٌ جميل، الشيخ محمد حسان.
4) منزلة الصبر، الشيخ أبو إسحاق الحويني.
5) الصبر على طاعة الله، الشيخ محمد صالح المنجد.
6) يحبّهم ويحبّونه، الشيخ خالد الراشد.

المقالات:

- الصبر على البلاء، بقلم الشيخ هاني حلمي، موقع الكلم الطيب.
- عشرة أسباب تعين على الصبر على البلاء، الشيخ عبد العزيز المطيري، موقع طريق الإسلام.
- الصبر على الطاعة، الشيخ أبو بكر الجزائري، موقع معرفة الله.
- فضل الصبر عن المعاصي، موقع الكلم الطيب.
- أسباب الصبر عن المعصية، د. محمد راتب النابلسي، موقع موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية.

---

* وضعت هذه المراجع، كي يستفيد القارئ من قراءتها، أو بعضها، لتمدّه بجرعات جديدة قويّة، عن الصبر.

الفهرس

تم بحمد الله